عمل ملحمي للفنان يعكس مشهديات أليمة من احتلال العراق في 2003

# فرشاة نارية وأعمال صارخة

## ميراث الألم العراقي في معرض بالقاهرة للفنان التشكيلي سيروان باران

في عرض فني استثنائي تحتفي القاهرة بالفنان العراقي سيروان باران، عبر معرضه الشخصي المعنون بـ"ذاكرة لا تُمحى"، ليسرد فيه الفنان ما راكمه شعبه، ومن ثمة هو، من معاناة يطرحها في قوالب فنية جريئة وصادمة، لكنها مُبهرة.

القاهرة – يقرّ نقاد الفن أن كل معرض جديد للتشكيلي العراقي الكردي سيروان باران، هو حدث فني ينتظره هواة الفنون الجميلة ونقادها على السواء، فمع كل معرض يُقدم الفنان على إقامته ثمّة تجربة إبداعية مختلفة عمّا سبقها، فهو لا يخلف الوعد بأعمال فنية يقدم من خلالها تطويرا لأساليبه الفنية في الرسم مستلهما أعماله من ضباب الذاكرة، وممّا اختزنته العين من المرئي اليومي. ومن الطبيعي أن لا يحيد معرض "ذاكرة لا تُمحى" الذي يفتتح، مساء الأحد، في "غاليري مصر" عمّا عوّد الفنان العراقي متابعيه عليه من مفاجآت تصل حد الإبهار.

عن المعرض، يقول الفنان محمد طلعت مدير "غاليري مصر"، "هذا العرض من أهم العروض البصرية لهذا الموسم وذلك لما تتمتع به أعمال الفنان سيروان من قيمة فنية رفيعة، ولأهمية أطروحاته الجمالية ولما تتناوله موضوعات الأعمال من قضايا إنسانية تمسّ الوجدان وتتجسد في مشاهد مرعبة للمعاناة الإنسانية التي عايشها، والتي يطرحها في قوالب فنية جريئة وصادمة أحيانا، هناك في أعماله انعكاس إبداعي لصور مفزعة للظلم والألم، فتُثير هذه اللوحات باقتدار التساؤل عن مصير الإنسان في هذا العصر. ثمة في لوحاته زحف تدريجي للعتمة كسياج يُحيط بالمشهد المصوّر، وكأن الفنان حريص على تأريخ هذه الأحداث خوفا من أن تدهسها عجلة الزمن، ولتبقى تسرد للأجيال قصة فنان أصر على أن تكون لوحاته الناطق الرسمي عن آهاته وآلامه". يضيف طلعت "سيروان باران رجل شجاع قبل أن يكون فنانا مُبدعا".

وفي دراسة عن الفنان الكردي العراقي للناقد الفني المصري محمد كمال تحت عنوان "تجسيد القهر واستنفار الروح بفرشاة غاضبة" ألقى الضوء النقدي فيها على تجربة سيروان الغنية التي استلهمها من بين ثنايا الظلم والطغيان للحاكم المستبد، علاوة على جرائم الاحتلال الأميركي في العراق بداية من عام 2003، وذلك بفرشاة رشيقة غاضبة تحوّلت فيها ألوان الأكريلك إلى نيران حارقة، والمسطحات النسجية إلى أبسطة للطغيان، بينما تحول باران نفسه إلى عاصفة استنفارية للروح في مواجهة كل أعاصير التجبّر.

وبدوره يقول الكاتب والناقد الفني المغربي فريد الزاهي عن أعمال باران "ثمة فتنة ساحرة وخفية في أعمال الفنان الكردي العراقي سيروان. إنه إحساس غامر بالمأسوي المركب، ودهشة تتلعثم أمام التشوّه الفائق للكائن، وفتنة لا تقاوم أمام الغيرية التي تسكننا وتنزع عنا شخصيتنا كي تحوّلنا إلى قناع. إنه قناع الوجود الذي يتحوّل إلى جوهر للمظهر وظاهر للباطن. وهكذا فإن فن اللوحة لدى سيروان يغدو فن افتكاك التشخيص، والتشويه الجذري للمرئي والمعيش وتجريده من لبوسه الخلّقي والخُلقي. وهو بذلك إعادة تركيب للمرئي، الذي يساميه كي يسبر فيه تلك الشذرات الخفية التي تصوغ المظهري والحضوري وتعيد صياغتهما".

> بفرشاة رشيقة غاضبة تحوّلت ألوان الأكريلك إلى نيران حارقة، والمسطحات النسجية إلى أبسطة للطغيان، بينما تحول باران نفسه إلى عاصفة استنفار للروح في مواجهة كل أعاصير التجبّر

ويسترسل "من ثم يبدو الفنان أشبه بساحر يمارس على الأشكال سحره، بحيث إنه في ما وراء قبحها المركب يعرف كيف يمنحها جمالها الباطن. كما لو أن تلك الوجوه والأجساد لا توجد ثمّ إلاّ لكي تضعنا إزاء استحالة نظرنا. إننا نصاب بالعمَه أمام تلك المخلوقات 'غير الخالصة' التي يبدو أنها تتلاعب بأقانيم الجمال المعروفة، إذ نحن ننظر إليها من غير أن نراها. أو بالأحرى هي التي تستقيم أمامنا مثل كراكيز صنعتها صبيّة من بقايا قماش مختلف الألوان والتلاوين. ومن ثم نلحظ ذلك النزوع لدى سيروان إلى اللعب. إنها لعبة الأبعاد والمنظورات المتراكبة التي لا يمكن أن نقيسها إلاّ بميزان الحساسية الخافتة والضبابية. في الوقت الذي تبدو فيه الألوان مشرقة وتلاوينها باهتة. وهي مفارقة تظهر فيها التناقضات بين المرح الطفولي والمأساة الغامرة والتراكبات بين الأجساد والحالات، التي تستحث حسّ المتلقي وتشحذ يقظته".

سيروان باران عارف من مواليد بغداد عام 1968، حاصل على بكالوريوس فنون جميلة من جامعة بابل، عضو نقابة الفنانين العراقيين، عضو اللجنة الوطنية للفنون التشكيلية، وعضو الرابطة الدولية AIAP.

أقام العديد من المعارض الخاصة والمشاركات الجماعية الدولية والمحلية وحاز على عدد من الجوائز منها جائزة الشباب الأولى 1990، الجائزة الذهبية "مهرجان الفن العراقي المعاصر" 1995، وسام تقديري من بينالي القاهرة 1999، الجائزة التقديرية بينالي بغداد العالمي الثالث 2002، والوسام الذهبي مهرجان المحرس الدولي بتونس 2002.

## فنان الجمال والقسوة

فاروق يوسف
كاتب عراقي

منذ مشاركته في الدورة الأخيرة لبينالي فينيسيا، بدا واضحا أن سيروان باران قد انتقل إلى معالجة موضوعات ذات بعد إنساني هي الوجه الآخر للحرب، ذلك الوجه الذي يمكن أن يتشكل من مخلفاتها المأسوية. لذلك صارت لوحاته تضجّ بالأصوات التي هي خلاصة الألم في ذروته. فما لا يُرى من الحرب في لحظة وقوعها هو ما يبقى باعتباره أثرا يشير إليها في منطقة مجاورة.

ولقد انتبه باران متأخرا إلى أن استغراقه المُتعوي في مديح الجمال عبر مراحل تطوّر أسلوبه قد جعله يولي ظهره لمأساة بلاده بعد الاحتلال، وهو الخطأ الذي وجد أن عليه أن يتداركه بطريقة ذكية توحي بكثير من التحدي للقسوة. وهذا مفهوم مطلق يبدو ملائما للغة شاء باران أن يخاطب العالم من خلالها. وهو في ذلك إنما يخلص إلى الفن بقدر اشتباكه بالبعد الإنساني الذي تنطوي عليه مأساة بلاده.

ذلك درس تعلمه الرسام العراقي من المعلمين الكبار أمثال الإسباني غويا والألماني أنسليم كيفر اللذين عالجا موضوعات لها علاقة بتداعيات الحرب.

وعلى المستوى نفسه، فإن باران من خلال تجربته الحالية يعد لحظة فارقة في تاريخ الرسم الحديث في العراق. إذ يمكن القول إنه الرسام العراقي الأول الذي جرؤ على الدخول إلى منطقة شائكة ذات أبعاد مباشرة مثل الحرب، لا من خلال عمل دعائي واحد، بل من خلال تخصيص تجربة فنية كاملة استغرق العمل عليها سنوات.

ذلك حدث استثنائي وبالأخص أنه يتم وفق شروط جمالية غاية في الدقة. فالرسام بالرغم من انغماسه في التصدي لموضوع مباشر لم يتخل عن أسلوبه الجمالي الصعب الذي هو خلاصة عمر من الموهبة والحرفة والخيال. وهو ما يجعلنا قادرين على الحديث عن جمال يتألم. وهو ما حرص باران على أن يبقيه حيا من خلال معادلة "الجمال والقسوة". ليست القسوة في مكان فيما الجمال في مكان آخر. لقد عمد الفنان إلى المزج بينهما في حوار مميت صامت، يمكن من خلاله الشعور بقوة الفن.

والفنان يسعى من خلال الجمال إلى إلحاق الهزيمة بالحرب التي نجحت في أن تهزم الواقع. كما لو أن باران يسعى إلى مخاطبة الأشرار بالقول "بقدر ما أنتم أقوياء في الواقع بقدر ما أنتم ضعيفو الحيلة أمام الخيال"، فباران هنا يدافع عن الإنسان والفن في الوقت نفسه، من خلال لغة تبدو على قدر كبير من الثقة والهدوء والحكمة والاتزان.

إنها لغة الفن الذي يقوى على اختراق العتمة وصولا إلى نقطة ضوء. وهنا يمكن القول إن باران خلق عالما متفائلا داخل الكابوس الأعمى. فرغم المأساة التي هي محور أعماله استطاع الرسام أن يبقي على شيء من الأمل. هو ذلك الشيء العنيد الذي تمثله روح المقاومة. فالجمال هنا يقاوم بقدرته على البقاء حيا من غير صخب.

لقد أنتج سيروان باران الذي ينتمي إلى الجيل الفني الذي عاصر الحروب العراقية كلها أعمالا فنية يمكن أن ترقى إلى مستوى الأعمال الفنية التي لا تُمحى من الذاكرة بسبب ارتباطها بالمنعطفات الحادة من التاريخ البشري.

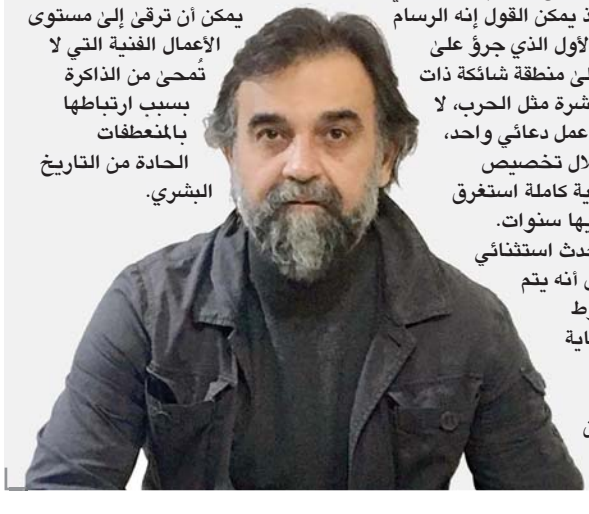

ألوان صارخة ولحظة إنسانية فارقة

بورتريه رجل من العراق